

مداغىء

الثلج

توفيق عثيمين

# الإهداء

إلى من علّمتني السفر في  
...جواهر خلجاتي  
إلى من كان رحيقها حبرا تتلمّظه  
...صفاتي

إليك أقضي حجاً مبروراً دافئاً  
إلى مناطق تشتعل خضرة في  
....متلاطم أعماقي

هَذَا بَعْضُ مَنْ شَهِيَ شَذَاكَ  
يَسْتَحِيلُ مَبَانَ تَضَجَّ بِدَافِقِ  
...المعاني وحمى الكلمات  
وَأَخِيَّتِي الرَّائِعَةَ فَتْحِيَةَ.. كَانَتْ دَائِمًا  
تَهْدِينِي مَسْتَقِيمَ الصَّرَاطِ وَ تَرَبَّتْ  
عَلَى كَلُومِي الْغَائِرَةَ فِي جَمِيعِ  
مَفْرَدَاتِي ... وَ أُمِّي الَّتِي أَرَى فِي  
رَبْعَانِهَا سُرُورِي وَ أَهَازِيجِ  
...صفتي

ت - ع

## تقديم

هذا كتاب أردته سفراً مُضنياً  
في سراديب الذات... مُتعة تتقلبُ في  
لضى المفردات و سعيِّ الى  
كشف الحُجب المتناثرة على  
عتبات النفس الضّاجة  
بالرغبات... إنّها الحيرة تأبى أن  
تنصاع للإيحاء و أجدني أجدّ في  
منازلة اللّغة أنشدُ ذرّة ارتواء  
فتصدني الكلمات و أتحفز في

كل صفحة للإيقاع بالمجداف فإذاه  
يتشقق و تعلوه قتامة الإنزواء و  
إذا المنافذ تلتف في حلقي و  
يصبح لها طعم الجيف و رائحة الأموات  
فأحملني إلى قوارب النّجاة و أغوص  
في لذة الإنتشاء أروم أن  
تعتريني رعشة الإختراق... إنه  
سير حثيث نحو مراتب الصّفاء و خلوّ  
الروح من شوائب الإمحاء... و  
نظرت في بكر الفلوات فأدركت شقاء  
الإنشاء و هذا التّيه اللولبيّ  
يتوارى خلف الأنواع ثم تناقلت

كأني أهمّ أن أركب الشَّهْبَ و انبرت  
أمامي مصاييح المساء فركبتُ صهوة  
التجليّ و هممت برحب الفضاء..  
إنه حديث يتمطّى في تقاسيم  
أعماقي و ألوان من الميلاد و  
تدافع لذيد نحو لذائد الإسراء...  
أقول كأني أدغدغ أسراب الجمر  
المتخثرة بمعيني أسألها أن  
تستحيل بلسما من النور و  
أشتاق الى الحرف الأقصى  
أقضي به حجًا الى المعنى  
المبتور و قد رأيت الدّفء ينبت من الأريز

وَأَيْقَنْتُ فِي الصَّقِيعِ الْمَتَغَلْغَلِ فِي  
الصَّدُورِ سَلَامًا وَدِرْعًا لِلشَّحُوبِ...  
رَحْلَةً كَانَصْرَافِي إِلَى اللَّفْظِ اللَّغْزِ ثَمَلٌ  
بِهَذَا التَّدَافِعِ فِي شَرَايِينِي أَقْطَأُ مَضْجَعَهُ  
وَأَنْزَعُ عَنِ الْجُمَلِ الْمَخْنُوقَةِ غِشَاءَ  
الْيَقِينِ...

توفيق.

كان المساء يورق في  
غرفتها منتشرا في أرجائها كتقل  
السنين و هي تنظر إلى ملاءة  
قديمة أثقلها الغبار و جلسة  
المتقاعدین و راحت تقلب في  
بقية الرماد المتجمع في التنور و هي  
تحاول ترصيف الأثافي تروم أن تضرم

النار لتدفاً ويدفاً من حولها  
المكان فلملمت ما اختفى تحت الرماد  
من الجمر ووضعت فوقه بعض  
الأغصان اليابسة و ما جفّ من  
أوراق الشجر ثم جعلت تنفخ فيهم و  
ضباب الدخان و الرماد يثوران  
في وجهها فيسيل دمعها على  
خدّها المتجعّد ثم تتحدّى أسراب  
الدخان و تضاعف من قوة النّفخ  
و أوداجها تعلو و تتخفض حتى ترى  
السنة اللهب تتأجج صعودا نحو السقف

فتكف عن ذاك و في نفسها هم و غم  
كثيرين.

كانت صابئة حالكة البشرة  
ازدانت عيناها بسواد إغريقي و  
اعتلت جبينها الأخاديد العميقة  
التي حفرتها الحرفة و الفاقة و  
زمهير الزمن الذي ما يزال  
يطرق غرفتها ذات كل شتاء بغيض..  
أصابها هزال قاتم فأمست نحيفة  
جدبى كورقة كالحة تتقاذفها رياح  
الخريف و كان لسعالها دوي و  
هو يخرج من بين مفارق صدرها

المرتجف كأنما هزته لسعات  
الأريز.. كانت تفترش فروة خروف  
تلبد صوفها و هي تداعب ابنها  
شافه و تهدده مترنمة ببعض أهازيج  
الأولين ثم ما فتأت أن مدّت يدها  
نحو معطف زوجها المبقع برائحة العرق  
فدثرت به ابنتها مدامة ثم  
انصرفت تحضر القدر و كان من الطين  
فصبت به ماء كثيرا ووضعتة فوق النار و  
هي تحلم بحساء ساخن لذيد..  
كان الليل مدلهما يملأ أرجاء  
الغرفة عتمة حينما هبت ريح

عطارد فارتجفت أرجاء الغرفة و  
كانت من قوالب الطّين تشدّها أعمدة  
من شجر الصنوبر وقد رصف سقفها  
بأعواد من القصب الأصفر اليابس و  
طلّيت جدرانها بمزيج من التبن و  
التراب..

تحسّست صابئة الجمر  
بمهماز من الحديد و أذكته ببعض  
الخطب المرصف على يمينها ثم  
**جعلت تنظر حالمة إلى السنة**  
اللّهب و هي في صعود لولبي  
كأنها تروم أن تشبّ في سقف

الكوخ.. التذّت أطرافها بالدفاء  
المنساب من بين ردهات المأوى  
الفقير و اعتلت محجرها حمرة  
الشوق إلى زمن العشق و فجر  
النضارة و الوصال.. كان يتراءى لها  
بأنفه الشارد و صدره المتفخ و  
هو يطارحها حرّ الغرام و يغمر  
صدرها بدفاء عنيف.. و فيما  
كانت تطالع أضغاثا واهية تعلوها  
شطحات الدخان الذي بدا في تشبه  
كشيخ أشعث يضحك ملء شذقيه  
سمعت ابنتها تقول:

"

أمي... مالك تسافرين و ضباب الدخان  
فلا نقع لك على حال؟ هل لك أن تروي  
لنا حكاية نستأ نسها فتأسى بها؟ "

شخصت صابئة نحو الطفلة

و قد هزّها قولها و راح يدغدغ

رفات أحشائها كزممة الجنين

قبل انبعاته فمسحت بيدها على

جبينها المترهلّ اعتلته سمرة

حادة و اشتدت عليه قبضة الزمن فبدا

ضاجا بالمياسم ثم هزت رأسها و حدقت

في لون الجمر و قد توقّدت ثم همست.

" سكارى نحن البشر برغيف  
قدّ من الصّخر فهو فتات الرمل  
يستحيل خبزا فنألفه قوتا كبعض  
الكواسر من أهل الجبل.. حكاية  
تطالعنا كبعض منا فهي جوهر  
خالص ينشأ من بين الغدد مبان و  
معاني تصغر و تكبر فينا فنسافر  
في رحابها نروم شيئا كضياء البدر..  
أرحل بكما اليوم إلى زمن الإنسان البكر  
ينفض عن جلده رعشة الخنوع و في  
نفسه توق مستحيل إلى التآله و الظفر  
بالخلود..